

سُورَةُ الْعَصْرِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

أركان النجاة الأربعة

(103) سورة العصر

تفسير سورة العصر

2019-12-16

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى صحابته الغر الميامين، أمناء دعوته، وقادة ألوبته، وارض عنا وعنهم يا رب العالمين.

القسم بالله فقط لأن القسم بغير الله لا يجوز شرعاً :

أخواننا الكرام؛ سورة في كتاب الله قال عنها الإمام الشافعي رحمه الله: "لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَّتْهُمْ"، سورة واحدة، سطران في كتاب الله، قال: " لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَّتْهُمْ"، ما هي هذه السورة؟ سورة العصر، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ

(سورة العصر: الآية 1-3)



لا يجوز أن نقسم إلا بالله

هذه سورة العصر، نبدأ بشرحها بما يفتح الله، أولاً: (وَالْعَصْرِ) هذه الواو واو القسم، أنا وأنت إن أردنا أن نقسم فلا يجوز لنا شرعاً أن نقسم إلا بالله، أنا وأنت لا يجوز أن نقسم إلا بالله، يقول صلى الله عليه وسلم:

{ مَنْ كَانَ حَالِقًا فَلْيُحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَتَضَمَّتْ }

(صحيح البخاري)

وفي حديثٍ أخرى:

{ من حلف بغير الله فقد أشرك }

(رواه أبو داود والترمذي)

لأن الحلف بغير الله هو تعظيم لغير الله، فكأنه أشرك الشيء الذي يحلف به مع الله، أشركه مع الله فعظمه فحلف به، فأنا وأنت لا يجوز أن نقسم إن أقسمنا إلا بالله.

الله تعالى يقسم ببعض مخلوقاته للفت نظرنا إلى عظيم هذا الشيء :

لكن الله تعالى له أن يقسم جلّ جلاله بما شاء، فيقسم أحياناً ببعض مخلوقاته يقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى

(سورة الليل: الآية 1)

هذا قسم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



لماذا يقسم الله بشيء من مخلوقاته

هذا قسم، فيقسم تعالى بما شاء من مخلوقاته، لماذا يقسم العظيم بشيء من مخلوقاته وهو الخالق جل جلاله؟ قال ليلفت نظرنا إلى عظمة المقسم به، فعندما يقسم بشيء كأنه يقول: يا عبادي انتبهوا إلى الليل فهو نعمته قد تغفلون عنها (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)، عندما يقول: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) انظروا إلى هذه الشمس واستدلوا من خلال عظمتها على عظمة خالقها، فالله تعالى إذا أقسم بشيء من مخلوقاته فما ذاك إلا ليلفت نظرنا إلى عظيم هذا الشيء المقسم به.

الإنسان بضعة أيام ومضي الزمن يستهلكه :



الزمن هو البعد الرابع للأشياء

هنا قال: (وَالعَصْرِ) أو القسم، أقسم بالعصر، ما هو العصر؟ الدهر، الزمن، الأيام، الأسابيع، الشهور، الأعوام، (وَالعَصْرِ) العصر يمضي، لماذا أقسم الله تعالى للإنسان بالعصر؟ بالزمن؟ لأنه زمن، لأنك أنت وأنا زمن، إذا عرفنا الإنسان تعريفاً، الزمن هو البعد الرابع للأشياء، اليوم بالعلوم الحديثة الزمن هو البعد الرابع للأشياء، عندنا طول وعرض وارتفاع أصبح مكعباً، إذا تحرك بشكل البعد الرابع يسمونه الزمن، الإنسان زمن لأنه هو طول وعرض وارتفاع ويتحرك، فهو في الحقيقة زمن، يقول الحسن البصري وهو من التابعين: إنما أنت يا ابن آدم بضعة أيام إذا انقضى يوم انقضى بضع منك، فأنت عندما تمضي يمضي بعضك، الزمن يمضي وأنت تمضي مع الزمن، نحن التقينا الاثنين الماضي كنا جميعاً أبعد عن الموت من يوم الاثنين هذا، هذا واقع أي ليس تشاؤماً، هذه حقيقة كلنا اقتربنا، لماذا؟ لأن النهاية وقت محدد لن يتغير، فإنا جسم متحرك أسير نحو هدف ثابت:

هذا واقع، فنحن أقسم الله لنا بالزمن لأننا زمن، الآن ما جواب القسم؟ (وَالعَصْرِ) قسم، الجواب: (إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) دائماً أخواننا الكرام عندما تأتي يقسم وجواب قسم في القرآن الكريم ابحت عن السر بين المقسم به وجواب القسم، هذا موضوع مهم جداً بعلوم القرآن، ربنا عز وجل كلامه مبين واضح، لكن يحتاج إلى تأمل، فداًماً هناك سر بين المقسم به وجواب القسم، مثلاً ربنا عز وجل قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِتَاتِ فِدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأْتَرْنَ بِهِ تَفْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ



الإنسان في القرآن

حتى أوضح قبل أن أعود إلى العصر رينا عز وجل قال: (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا) العاديات هي الخيل التي بسبب مسيرها وعدوها تصدر صوتًا يسمى الضبح، عند الإنسان يسمى اللهاث، الخيل تضح من شدة عدوها (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * قَالْمُورِتَاتِ فُذْحًا) من شدة عدوها تصطك حوافرها بالحجارة فيخرج منها نار تفدح من شدة العدو، (قَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا) صباحًا الأعداء يجدون الخيل أغارت عليهم، هجمت عليهم، أغارت عليهم صباحًا، (قَاتِرْنَ يَوْمَ نُقْعَا) الغبار التي تثيره الخيول (قَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) نزلت الخيل بنصف الجمع وبدأت تدافع عن صاحبها، هي ليس لها علاقة، الخيل إذا فكرت بعقلها المعركة كلها هي ليس لها ناقة، ولا جمل، لكن هي دخلت إلى المعركة دفاعًا عن صاحبها (قَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) تتوسط الجموع وهو يحارب بها صاحبها، هذه صورة الخيل، انظر إلى وفاء الخيل لصاحبها، تعدو وتصدر الضبح، توري الفدح، تغير في الصباح، تثير النقع، فتوهم الأعداء بأنه جيش وكذا، ثم تتوسط الجموع، هذا كله وفاء الخيل التي هي مخلوق من مخلوقات الله لصاحبها، انظر جواب القسم: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) قليل الوفاء، تعلم من الخيل، أي أيها الإنسان تعلم من الخيل، الخيل التي خلقها الله من أجلك وفاءً لك، جاء جواب القسم: (إِنَّ الْإِنْسَانَ) الإنسان غير المؤمن، المؤمن ليس كنودًا، على فكرة الإنسان في القرآن هو الإنسان قبل أن يؤمن، فأنا لي نظرة لا أعرف مدى صحتها لا أحب كلمة أنا إنساني، أحب أنا مؤمن، أنا رباني، إنساني للأسف هناك بعض الناس ينتسبون للإنسانية يرتكبون أفعالاً لا تقوم بها الحيوانات، فالإنسانية ليست صفة مهمة، الإيمان صفة المهمة، الربانية، (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) غير وفي، فجاءت المقابلة بين المقسم به وهو الخيل الوفية لصاحبها مع الإنسان غير المؤمن الذي يكون كنودًا، الكنود هو عكس الوفي، الذي ليس وفيًا، هذه المقابلة بين القسم وجواب القسم، نعود إلى (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) لأن مضي الزمن يستهلكك فأنت خاسر، العصر يمضي وأنت تخسر، ماذا تخسر؟ تخسر الوقت الذي هو رأس مالك، ضيعت الوقت فيما لا ينفع، فأنت تخسر إذًا، أحد التابعين يقول: تعلمت معنى سورة العصر من بائع الثلج، قال: مررت به في السوق فإذا به يقول ويصيح: ارحموا من يذوب رأس ماله، قال: فقلت هذا معنى (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)، بائع الثلج يذوب رأس ماله المسكين الحقوا بي، واشتروا، لأن رأس مالي يذوب، فالإنسان يذوب رأس ماله مع مضي الزمن، أنا رأس مالي الزمن.

الوقت أثن من المال :

الآن: يوجد لدينا المال، ويوجد لدينا الوقت، الإنسان المال غال عليه، المال شقيق الروح، كلنا نحب المال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ

(سورة العاديات: الآية 8)

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) قال: الخير هنا هو المال، والإنسان يفرح بما زين الله له في الدنيا، سيدنا عمر بن الخطاب لما قرأ قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رُبَّنَّ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالتَّبَيِّنِ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْحَلِيلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ □ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا □ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ

(سورة آل عمران: الآية 14)



الوقت أثمان من المال

(الْحَيْلُ الْمُسَوِّمَةُ) أي اليوم السيارات الحديثة، (وَالْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ) [كُلُّ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] فماذا قال سيدنا عمر؟ قال: يا رب إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا، أي أنت زينته لنا ففرحنا به، لكن انظروا إلى فهم عمر- متابعة الكلام- قال: اللهم إني أسألك أن أنفقه بحقه، فأنا سأفرح بالمال لكن أسألك ألا أنفقه إلا في الخير، هذا الفهم الحقيقي، فهنا لدينا الوقت، ولدنيا المال، ما الأثمان بينهما؟ المال قلنا ثمين جداً، لكن الوقت أثمان من المال، والدليل أن الوقت أثمان من المال نسأل الله العافية والسلامة للجميع أحياناً إنسان يصاب بمرض، ومعه مبلغ بسيط لا يكفي، يقول له الطبيب: تحتاج إلى مبلغ أكبر، يقول له: أبيع بيتي وأسافر وأجري العمل الجراحي لأنه قد يزيد في عمري، في الوقت، بأخذ وقت، أدفع مالاأخذ مقابله وقتاً، فلا يتردد في أن يقدم المال من أجل كسب الوقت، إذاً الوقت أثمان من المال، إذا رأيت إنساناً يتلف ماله بما تحكم عليه؟ بالجنون، وإذا شخص يجلس يلعب طاولة الزهر لطلوع الفجر!؟ هذا أكثر جنوناً من الأول، لأنه يتلف مادة الحياة التي هي الوقت الثمين، فهنا قال: (وَالْعَصْرُ* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) الإنسان خاسر لأن الزمن يستهلكه عندما يمضي، فإنا أخسر كل يوم، أي لو إنسان له عند الله ثمانون سنة، وسبعة أشهر، وأسابيع، وأربعة أيام، وخميس ساعات، وثلاث دقائق، وأربع ثوان، هذه حصته من الدنيا، الله يختبره بهذا، فكلما مضى لحظة انقضت جزء من هذه الكمية المحددة له بعلم الله عز وجل، فهو يخسر، هذا (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ).

الإنسان خاسر إلا إن حقق أربع صفات :



أركان النجاة

الآن انظروا إلى التوكيد؛ ربنا عز وجل أحياناً يحكي العبارة مؤكدة لبيان أهمية الموضوع، كيف يكون التأكيد؟ الآن التأكيد باللغة العربية يأتي بعدة أمور، مثلاً القسم توكيد، أنا أقول لك: السماء صافية، جميل، والله إن السماء صافية، صار كلامي مؤكداً، فالقسم للتوكيد، الحالة الثانية: (إِنَّ) للتوكيد، إذا قلت لك: الجو بارد، جملة عادية، إنَّ الجو بارد، صارت مؤكدة، الحالة الثالثة: يوجد عندنا في التوكيد شيء جميل باللغة العربية من باب المذاكرة، إذا قلت لك: الطالب يلعب أو يجتهد أو يجتهد الطالب، هذه جملة فعلية، فعل، هذه ليست مؤكدة، هذه بحد ذاتها إذا حولتها لجملة اسمية تصبح مؤكدة، الطالب مجتهد، أي الاجتهاد ملازم له دائماً، ليس فقط الآن يدرس قليلاً، لا دائماً، هذا توكيد، الآن إذا قلت لك: إن الطالب لمجتهد، وضعت اللام المزحلقة بالخير، هذا توكيد، هنا أكد الله تعالى بالموكيدات الأربع مع بعضهم، (وَالْعَصْرُ) قسم، (إِنَّ) توكيد، (الْإِنْسَانَ) جملة اسمية، (لَفِي خُسْرٍ) لام التوكيد، أي أكد بأربعة موكيدات، أن الإنسان خاسر، يا رب كيف أتلافى هذه الخسارة؟ كيف النجاة؟ قالوا: ما بعد إلا أركان النجاة، إن أردت أن تنجو من الخسارة المحققة فاقراً بعد إلا رحمة الله في إلا، وإلا كنا خسرننا جميعاً، هناك أناس لا يخسرون، من هم؟ هؤلاء يحققون أربع صفات: الأولى: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)، الثانية: (عَمَلُوا الصَّالِحَاتِ)، الثالثة: (تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)، الرابعة: (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)، تبدأ واحدة واحدة، هذه أركان النجاة، مهمة جداً.

الإيمان تصديق وإقبال و الكفر تكذيب وإعراض :

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)؛ الإيمان هو شينان: تصديق وإقبال، الكفر: تكذيب وإعراض، ما معنى كفر؟ غطاء، نحن عندنا بالشام يقولون: كفر بطنا، كفر كذا، ماذا يعني كفر؟ من شدة انتشار الأشجار تغطت الأرض، فسموها كفر بطنا، شدة الغطاء النباتي، وبالإنجليزية (Cover) كفر نفسها، فالكفر هو الغطاء، شيء يغطي، فالكافر:

يَسْمُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا



الإيمان تصديق وإقبال على الله

لم يستجيبوا للحق، فالإيمان هو التصديق والإقبال على الله، والإيمان يزيد وينقص، هذه عقيدة أهل السنة، الدليل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا

(سورة الأنفال: الآية 2)

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

{ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلُقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ التُّوبُ -" الثوب يبلى والإيمان يخلق- فَاسْأَلُوا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ }

(صححه الألباني في صحيح الجامع)

وكان الصحابة يقولون: تعال بنا نؤمن بربنا ساعة، فهذا المجلس الكريم الطيب هو مجلس إيمان، يزيد في الإيمان، كلنا أنا وأنتم نزداد إيماناً بالمجالس الطيبة، وإذا أعرضنا فترة طويلة سافرنا لمكان، وانشغلنا، وانغمسنا بالحياة، يقول: والله قلبي جفّ أصلي وأصوم وكذا ولكني أشعر بضعف الإيمان، فالإيمان يقوى ويضعف، مهمة الإنسان دائماً أن يرعى إيمانه، أن يزيد في إيمانه، فالإيمان هو التصديق مع الإقبال على الله عز وجل، الإقبال ميني على هذه المجالس، ميني على قيام الليل، ميني على التفكير بخلق السماوات والأرض، ميني على صدقة تدفعها لا تعلم يمينك ما أنفقت شمالك، هذا كله يساعده بالإيمان، الإيمان ميني على الصحة الصالحة، تشعّر بإقبال أكثر على الله، كلما أكثر من البر وأعمال الخير، سواءً العبادات التي نفعها لك، أو المعاملات التي نفعها متعد إلى الآخرين، فأنت بذلك تصعد بإيمانك، تصعد الإيمان نحو الأعلى، فالإيمان هو علم، طلب علم، هو في الأساس الإيمان طلب علم، كلما علمت أكثر تصرفت بناءً على هذه المعلومات بشكل أكثر، فهذا الجانب الأول، دعونا نقول: هو الجانب العقدي أو الفكري أو الأيديولوجي، أو يسمونها بالأنظمة الداخلية المنطلقات النظرية، أي الجانب الفكري، هذا إيمان، لكن لأن الإسلام في الأصل لا يقبل إيماناً بلا حركة أو لا يجدي إيماناً بلا حركة، لا يجدي، لابد من أن يتبعه حركة، لذلك ربنا عز وجل قال: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا قُورًا، وبكل الآيات (آمَنُوا وَعَمِلُوا) فالإيمان اعتقاداً بالجنان - بالقلب- اعتقاد، وقولاً باللسان، وعمل بالركان، فهناك عمل، فلما قال: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا} انتقل فوراً إلى {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}.

ارتباط العمل الصالح بالإيمان لأن الإيمان هو الأساس :



ما هو العمل الصالح؟

في المرة السابقة تكلمنا عن العمل الصالح قلنا: هو الذي يصلح للعرض على الله، أي عمل إذا كان يصلح للعرض على الله فم به، إذا وجدته لا يصلح لا تقم به، مرةً روى لنا شيخنا الدكتور راتب النابلسي قصةً أخذت منها عبرة، قال: كنت مسافراً إلى لبنان- بأيام شبابه سافر إلى لبنان- قال: فوالله وجدت بالحركة الراجعة، بالطرف الثاني، تعرفون الحدود طريق ذهاب وطريق إياب، هو ذاهب ولا يوجد تشديد، الطريق سالك، ولكن فهم أن في الطريق الراجع يوجد مشكلة كبيرة، وهناك تفتيش دقيق جداً، وهناك سياسة جديدة بالتعامل مع المهربات، وجمركة للبيضات، شاهد المنظر وخرج وتابع طريقه إلى لبنان، الآن أثناء وجوده في بيروت، وكانت الحاجات قليلة بسوريا وجد شيئاً طريفاً، يتساءل: هل أشتري هذا الخلاط؟ أريد أن أشتريه ويفكر هل أستطيع العودة به أم لا؟ مشددون جداً عند طريق العودة إلى سوريا، قال: فتعلمت درساً، أنه إذا أردت أن تعمل عملاً أن أسأل نفسي هذا السؤال: هل يا ترى يمر عند الحساب أم لا يمر؟ فنحن ربنا عز وجل صور لنا يوم القيامة الآن موجود مسربة الأسئلة كلها:

يَسْمِ اللّٰهَ الرَّحْمٰنَ الرَّحِیْمَ وَسِیْقَ الذِّیْنَ اتَّقَوْا

(سورة الزمر: الآية 73)

يَسْمِ اللّٰهَ الرَّحْمٰنَ الرَّحِیْمَ وَسِیْقَ الذِّیْنَ كَفَرُوا

(سورة الزمر: الآية 71)

(وسیق الذین اتقوا)، (وسیق الذین كفروا) المشهد واضح، فالإنسان مهمته إذا أراد أن يعمل عملاً أن يقول: يا ترى هل أستطيع بهذا العمل أن أمر أم لن أستطيع المرور؟ فقط هذه هي المعادلة، إذا لم يمر معك أحضره، إذا لم يمر فهو غير ضروري، لأنك ستدفع أكثر من سعره، سيكلفك أكثر من سعره وسيصادر.



الإيمان أول أركان النجاة

إذا أحوانا الأحياء: الإيمان هو الجزء الأول من النجاة، أو الركن الأول وهو الأساسي، لأنه لا يترتب عمل صحيح من غير إيمان، لذلك قالوا: لو لم تكن العقيدة تنعكس سلوكاً لقلنا لك: اعتقد ما شئت، لكن دائماً العقيدة تنعكس سلوكاً، الآن أنت إذا كان غداً صباحاً الجو بارداً جداً، وذهبت لصلاة الفجر، وأنت عائد إلى البيت رأيت شخصاً بلبس ملابس خفيفة وبركض، هذا ماذا يرى؟ هذه عنده عقيدة مهمة جداً في موضوع الرياضة، هو لو لم يكن عنده عقيدة بموضوع الرياضة لما ركض، يتمنى مثلك أن يعود إلى البيت وبنام، هو أيضاً يحب النوم، ولكن هو وصل ليقنيات متعلقة بأهمية الرياضة فأصبح يركض في البرد، ولكني أنا لا أفعلها، وأقول أنا معتقد بأهمية الرياضة ولكن يا ترى بقدر عقيدته؟ لا والله، لو بقدر عقيدته لركض معي، ولكن أنا لم أصل إلى أهمية الرياضة مثلما هو وصل إليها، هو يرى أنه ينشط كثيراً، ونهاره أفضل عندما يلعب رياضة، ويأخذ من وقته للرياضة، أي عنده شيء، عنده منطلقات، فلذلك الإيمان هو الأساس لأن الناس يتحركون في الحياة بناءً على المعطيات التي في بالهم، الآن أنا وأنت إذا عرض علينا درهم من حرام لا نأخذه، ونقول: ليس لنا مصلحة، مبلغ مالي نقول له: لا، لماذا؟ لأنه أنا عندي رؤية، الرؤية تقول لي بأن هذا المال الحرام هو ينس في الدنيا والآخرة، يأتي غيري ويعدده معنماً، عنده رؤية ثانية، ما تمكنت من ذاته رؤية بأن هذا المال حرام، هذا سيرفتني في الدنيا والآخرة، فأنت تتساءل كيف أترك هذا المبلغ العظيم مثلاً؟ إذا شخص بعيد عن الله يمكن أن يسأل: كيف أتاه مبلغ منه ألف وركلهم بقدمي؟ هذا عنده عقيدة وعنده إيمان بأن هذا المال لا يجوز أن أخذه من حرام، انتهى، فنحن كلما صارت تصوراتنا صحيحة عن الإنسان والكون والحياة يتقلب سلوكنا بشكل صحيح بناءً عن التصورات الصحيحة، فلذلك ينبغي أن نعتقد اعتقاداً صحيحاً، هذا هو الجانب الأول، الإيمان، (أمتوا) أي صدقوا، ربنا عز وجل في القرآن الكريم قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا

(سورة طه: الآية 142)



معيشة الضنك هي البعد عن الله

هل أنت مصدق بهذا الأمر؟! لو رأيتك يعيش بريح أو يقصر هذا يعيش مَعِيشَةً ضَنْكًا، معيشة الضنك هي البعد عن الله، هي البعد عن الحق، البعد عن القرآن، لو رأيتك بمظهر مسرور جداً، لا تقل مثل الذين لما خرج عليهم قارون في زينته قالوا: (الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ) تصور، هم رأوا أن هذا مكسب عظيم، (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ) (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ) ماذا رأى هؤلاء وماذا رأى هؤلاء؟ الموضوع موضوع تصور، تصور صحيح، رأى هؤلاء أن النتيجة هي هلاك ونار، وأن هذا المظهر الأبهة الذي يمشي به قارون مصيره إلى الهلاك:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ □ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ

(سورة القصص: الآية 79-80)

فأنت ترى بذور الهلاك في كل عمل سيئ، وترى بذور الصلاح في كل عمل صالح، فتتجه إلى الحق وتبتعد عن الباطل، هذه (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا).

الإسلام حركي و ليس سكونياً :



الغيان يدفعنا للعمل الصالح

الآن (أمثوا) كما قلنا (وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ) أي انتقل العمل إلى سلوك، أو انتقلت المنطقتان إلى سلوك، لا يوجد في الشرع أو في الدين إسلام سكوني، ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلبك حتى تعبر عن ذاتها بحركة، مستحيل، يجب أن تنهض بشيء، هذا وافد قومو ضمام عندما جاء للنبي صلى الله عليه وسلم فوراً لما قال: أَمِثْتُ بِمَا جِئْتُ بِهِ، دخل إلى المسجد هذا ضمام بن ثعلبة والنبي صلى الله عليه وسلم جالس بين أصحابه، فقال: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ هنا يوجد معينان لطيفان في أيكم محمد، لو استطرنا قليلاً، الاستطراد أدبياً مقبول إذا حافظنا على الخط الرئيسي، الجاحظ كان من أكثر الأدباء استطراداً يدخل بموضوع ويدخل بالثاني والثالث ويعود للأول، لا ينسى الأول، نحن بسورة العصر ينبغي أن نعود لكن قد نستطرد، الشيخ علي الطنطاوي كان يستطرد رحمه الله، الاستطراد أدبياً هو شيء جيد، بشرط أن يكون معتدلاً، وتخرج وترجع، فلما دخل قال: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ قالوا فيها شيئاً؛ الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بين أصحابه كواحدٍ منهم، ليس له هيئة خاصة، ولا مجلس خاص، ولا آبهة، كان يعيش واحداً بين الجميع، هياه تفوقه ليعيش فوق الجميع فعاش واحداً بين الجميع، صلى الله عليه وسلم، فما عرفه، فقال: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ سمعت توجيهاً آخر لطيفاً من فترة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مزج أصحابه ومارجوه اختلطت روحه بروحهم فأصبحوا كأنهم شيء واحد، هم اصطبغوا بكمال الله عليه وسلم، فأنت تدخل من الصحة تجد الأخلاق والتواضع والسمت الحسن على وجه كل أصحابه، فتعجب فقال: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ فقال أحد الصحابة: هذا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ المُنَكَّبُ، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد إِنِّي سَأَلْتُكَ فَمَسَدَدٌ عَلَيْكَ فِي أَحَدٍ قَامَ لِيَقُولَ لَهُ: كَيْفَ تُحَدِّثُ رَسُولَ اللَّهِ هَكَذَا؟ سَلُّ عَمَّا بَدَأَ لَكَ، قل: ما تريد، قال: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ، أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، اللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ قال صلى الله عليه وسلم: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قال: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تُصَلِّيَ الصَّلَاةَ الحَمْسَةَ فِي اليَوْمِ وَاليَلْمَةِ؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قال: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تُصَوِّمَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قال: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَعْيَابِنَا وَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَانَا؟ قال صلى الله عليه وسلم: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فقال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأنا ضمام بن ثعلبة، وأنا رسول من ورثتي من قومي، هنا موطن الشاهد، فوراً، وأنا رسول من ورثتي من قومي، أنا سأرحل إلى قومي، ماذا رأى ضمام؟ أي كم استغرق من الوقت؟ أربع دقائق أو خمس، خرج وقال له: أَمِثْتُ بِمَا جِئْتُ بِهِ، وأشهد أن لا إله إلا الله، ماذا رأى؟ رأى أخلاقاً، رأى تواضعاً، رأى محبة، رأى صدقاً في القول، رأى إجابة، قال له: سَلُّ عَمَّا بَدَأَ لَكَ، شدد في المسألة، فلما ما تريد، ثم سمع منه الجواب، فرجع إلى قومه فقال: بنسب الأث والغزى، فقالوا: صه يا ضمام، اسكت، لا تتكلم، أتق الجنون، أتق البرص والجذام، هذه الأكلة تصنع بك ما تصنع، فقال: وتلكم إلهما والله لا يضران ولا ينفعان أبداً، وقد جئتكم من عند محمد بما أمر به وبما نهى عنه، يقول راوي الحديث فوالله ما أمسى من حضرته رجل ولا امرأة إلا مسلماً، فما سمعنا بوافد قوم كان خيراً من ضمام بن ثعلبة، سموه وافد قومه، خير وافد في قومه، فهو لما آمن قال: وأنا رسول من قومي، أريد أن أتحرک وأفعل شيئاً، أريد أن أنفق وأدفع، هذا هو العمل، الحركة، قال: وأنا رسول من ورثتي من قومي، فوراً:

{ بعثت بنو سعي بن بكر ضمام بن ثعلبة وافتدًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأناخ بعيره على باب المسجد، ثم عقّله، ثم دخل المسجد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جلدًا، أشعر، ذا عديرتين، فأقبل حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه، فقال: أَيُّكُمْ ابنُ عبدِ المُطَلِّبِ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا ابنُ عبدِ المُطَلِّبِ، قال: محمدٌ؟ قال: نَعَمْ، فقال: ابنُ عبدِ المُطَلِّبِ، إِنِّي سَأَلْتُكَ وَمُعَلِّطٌ فِي المسألة، فلا تجدّ في نفسيك، قال: لا أجدّ في نفسي، فسئل عَمَّا بَدَأَ لَكَ، قال: أَسْأَلُكَ اللّٰهَ إِلَهَكَ، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، أله بعثك إلينا رسولاً؟ فقال: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قال: فَأَسْأَلُكَ اللّٰهَ إِلَهَكَ، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، أله أمرت أن تأمرنا أن نعبده وحده، لا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباءنا يعبدون معه؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قال: فَأَسْأَلُكَ اللّٰهَ إِلَهَكَ، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، أله أمرت أن تُصَلِّيَ هذه الصلوات الخمس؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الرّكّاة، والصيام، والحجّ، وشرائع الإسلام كلها، يُناشئُه عند كلِّ فريضة كما يُناشئُه في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وسأؤدّي هذه الفرائض، وأجتنب ما تهينني عنه، ثم لا أريد، ولا أنقص، قال: ثم انصرف راجعاً إلى بعيره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ولى: إن يصدّق ذو العقيصتين يدخل الجنة، قال: فأتى إلى بعيره، فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: ينسب الأث والغزى، قالوا: مه يا ضمام، أتق الجنون، أتق البرص والجذام، أتق الجنون، قال: وتلكم، إلهما والله لا يضران، ولا ينفعان، إن الله عز وجل قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنا محمدًا عبده ورسوله، إني قد جئتكم من عنده بما أمركم به، وتهاكم عنه، قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً. قال: يقول ابن عباس: فما سمعنا بوافد قوم كان

أفضل من ضمام بن ثعلبة {

فالعمل مرافق للإيمان، الإيمان يعبر عنه بالعمل فوراً، إيمان سكوني، إيمان يجلس الإنسان دون أن يتحرك، لا يوجد، لا بد أن تتحرك، تدفع، تعطي، الحركة، العمل له اتجاهان: اتجاه عمودي واتجاه أفقي، الاتجاه العمودي هو الحركة نحو الخالق، والأفقي هو الحركة نحو المخلوق، وتوَع بينهما، الحركة نحو الخالق، والحركة نحو المخلوق.

الحركة نوعان؛ حركة نحو الخالق و حركة نحو المخلوق :



الحركة نوعان

في القرآن الكريم عندنا قصة لسليمان وداود، داود عليه السلام انشغل بالعبادة، أي استغرق بالحركة نحو الخالق فجاءه الخصم فتسوروا المحراب، (قَالُوا لَا تَخَفْ ۚ خَصْمَانِ بَعَىٰ بَعْضًا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ)، (إِنَّ هَذَا أَجَبٌ لَهُ يَسْعَىٰ وَيَسْعُونَ نَعَجَةً) فهو منشغل بذكر الله، يجد متعته في العلاقة مع الله، فقضى لهما دون أن ينتبه (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) فجاءه من عند الله (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ) انتبه هناك حركة نحو الخالق، و حركة نحو المخلوق، أنت استغرقت بالعبادة والطاعة، ونسيت الحركة الثانية المهمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ ففَرَغَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۚ خَصْمَانِ بَعَىٰ بَعْضًا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ *
إِنَّ هَذَا أَجَبٌ لَهُ يَسْعَىٰ وَيَسْعُونَ نَعَجَةً وَلِيَ نَعَجُهُ وَاحِدَهُ فَقَالَ أَكْمَلِيْبَهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ ۚ وَإِنَّ
كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۖ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَانَهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا
وَأَنَابَ ۚ

(سورة ص: الآية 22-23-24)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ

(سورة ص: الآية 26)

سليمان بالعكس تماماً:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَثَ بِالْجَبَابِ

(سورة ص: الآية 32)



إقامة الصلاة هي الحركة نحو الخالق

انشغل بمصالح الناس، ومعاونة الناس، فعاتبه ربه، ينبغي أن توازن بين حركتين، لك حركة نحو الخالق لا تقطعها هي الصلة بالله، ولك حركة نحو المخلوق هي الإحسان للناس، ومد يد العون لهم، ومساعدتهم أيضاً لا تغفلها، حركتان متساويتان متوازيتان فيعبر القرآن الكريم عن هاتين الحركتين، دائماً بالقرآن نسمع (يُفِيْمُونَ الصَّلَاةَ وَيُوْتُونَ الزَّكَاةَ) إقامة الصلاة هي الحركة نحو الخالق، أي هي تعبير عن الحركة نحو الخالق، وإيتاء الزكاة هي الحركة نحو المخلوق:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ

(سورة الكوثر: الآية 2)

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ) من أجل أن تطعم المخلوقات (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) عامودية (وَأَنْحَرْ) أفقية، فنحن عندنا حركتان في الحياة ينبغي أن يكونا متوازيتين، أي لا تطغى واحدة عن الأخرى، لا نستغرق بالعبادة وننسى معاونة الناس، معاونة الناس بأي شيء، بكلمة طيبة، بصدقة، بشيء، وينبغي أيضاً ألا نغفل عن الحركة نحو الخالق، بأنه أنا دائماً أساعد الناس، لا، أنت بحاجة جرة لروحك، تحتاج قيام الليل، تحتاج صلاة الضحى، تحتاج أحياناً صيام نفل، تنمي إيمانك، فالحركتان متوازيتان، فهنا نقول: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) العمل الصالح حركتان، حركة نحو الخالق، وحركة نحو المخلوق.

التواصي بالحق :



التواصي بالحق

الثالثة: ثالث ركن من أركان النجاة، الأول: الإيمان، الثاني: العمل الصالح، الثالث: التواصي بالحق، التواصي فعل من أفعال المشاركة، ما معنى (تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)؟ أي أنا أوصيك وأنت توصيني (وَتَوَاصَوْا) أي تتبادل الوصية، تذكرني بالله وأذكرك بالله، تذكرني بالخير وأذكرك بالخير، تحتني على الطاعة وأحثك على الطاعة، وهذا من التواصي بالحق، الدعوة إلى الله نوعان: دعوة فرض عين على كل مسلم، ودعوة فرض كفاية، فرض الكفاية يختص بها من أكرمه الله بالعلم الشرعي، أي فرغ وقته ودرس علوم الشريعة، تصدر للمنبر، تصدر للدروس العلمية، وتصدر لوسائل الإعلام اليوم، وعلم الناس دينهم، هذه لا يستطيعها كل إنسان، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَلَوْلَا تَقَرَّرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ



أنت داعيةٌ بأخلاقك وسلوكك

أي فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الجميع، إذا قصر الجميع بأثم الجميع، هذا فرض الكفاية، أما الدعوة كفرص عين فهذه التي تشمل الجميع، لا يوجد إنسان إلا ينبغي أن يكون داعيةً إلى الله، كلنا دعاة، في الإسلام لا يوجد رجال دين، نحن مصطلح رجال الدين مصطلح دخل إلينا من ثقافات أخرى، في ديننا لا يوجد رجل دين، من الطرف التي صارت معي كان عندي معاملة، موجود في نص القرار الذي أصدرته الحكومة أنه يسمح لرجال الدين، فانا أخذت ورقة من الأوقاف بأني خطيب مسجد، فالموظف المسؤول قال لي: لا أستطيع، قلت له: لماذا؟ قال لي: لأنه غير مكتوب رجل دين، النص الخاص بالحكومة مكتوب به: لرجال الدين، وأنت خطيب مسجد، فرجعت إلى الأوقاف قلت لهم: أريد نصاً بأني رجل دين، قالوا لي: أنت شيخ وتعلم أن بالإسلام ليس عندنا رجال دين، فقلت لهم: يجب أن تفهموا الحكومة بأنه ليس لديكم رجال دين، هم أصدروا القرار بأني رجل دين، والموظف لا يرضى إلا أن يكون مكتوباً رجل دين، قالوا: والله لا يوجد مجال، مستحيل أن نكتب رجل دين لأنه بالإسلام لا يوجد مصطلح بأنه رجل دين، معهم حق، و وضعنا بين الاثنين - هذه القصة للمزاح فقط - فالقصد أنه لا يوجد بالإسلام فعلاً شيء اسمه رجل دين، كلنا رجال دين، كلنا نحمل هم الدين، نحمل هم الدعوة، لكن كما قلت: هناك بعض الناس تفرغوا، وهناك بعض الناس ينقل المعلومات لأهله، لبيته، لشريكه بالعمل، للموظفين الذين عنده، يمكن بأمانته، بصدقه يعمل دعوة إلى الله، بسمونها الدعوة الصامتة، وهي اليوم أبلغ من الدعوة الناطقة، لأن الناس اليوم كثير منهم كفروا بالكلمة، لأنهم لم يجدوا في سلوك قائلها مصداقاً لما يقول، أي يجدون الكلمة في واد والمتحدث في واد فأعرضوا عن الكلمة، فالיום قد تكون أنت داعيةً إلى الله عز وجل بأخلاقك وسلوكك، يشاهدون تاجرًا مؤمناً، لا يأكل مالا حراماً، ولا يأكل حقوق عماله، فيحبون الإسلام من خلالك، فهذه (وَتَوَاصُوا بِالْحَقِّ) قد تكون بالعمل الطيب، وقد تكون بالقول، وهي بالنتيجة تواص بالحق، فقالوا: (وَتَوَاصُوا بِالْحَقِّ) أوصيك وتوصيني، هذه الدعوة إلى الله عز وجل، قال تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ تَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي

(سورة يوسف: الآية 108)

فكلنا متبعون لرسول الله، فبالنتيجة كلنا ندعو إلى الله، لكن كل إنسان في المكان الذي أقامه الله فيه، فمننا من يدعو بكلامه وبخطبه، ومننا من يدعو بسلوكه، ومننا من يدعو بنصيحته، ومننا من يدعو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بمعمله، بمنجره، بأي مكان، (وَتَوَاصُوا بِالْحَقِّ).

التواصي بالصبر :

الآن الرابعة، ركن النجاة الأخير هو الصبر (وَتَوَاصُوا بِالصَّبْرِ).

أخواننا الكرام؛ الصبر نحتاجه في الأركان الثلاث الأولى، أي الإيمان يلزمه صبر، مجلس الإيمان يلزمه صبر، مجلس العلم يحتاج إلى الصبر:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا

(سورة طه: الآية 132)



الصبر يشمل كل شيء

فالإيمان يحتاج صبراً، والعمل يحتاج صبراً، يمكن أن تعمل عملاً صالحاً فتجد جفاء من الناس، تحتاج إلى الصبر، ليس دائماً يأتي رد فعل الناس صحيحاً، تحتاج إلى الصبر، والدعوة إلى الله تحتاج صبراً، فالصبر يشمل كل شيء، يشمل كل حركة، الإيمان نصفان، نصف صبر، ونصف شكر، كيف؟ المؤمن، لو التشبيه كان بعيداً قليلاً كيف المنشار؟ المنشار يأكل بالذهاب والإياب، المؤمن يرقى إلى الله بالحالين صابراً وشاكراً، أي قبل أن يتزوج الشاب يصبر على شهوة النساء، تزوج يشكر على نعمة المرأة، المال قلّ قليلاً والدخل ضعف يصبر على فقد المال، زادت الغلة يشكر، يا رب لك الحمد، لا يوجد ولد، تأخر قدوم الولد يصبر، ربنا عز وجل له حكمة، يأتي الولد فيشكر، فحال المؤمن مع الله هو حال الصابر أو الشاكر، ففي كلا الحالتين هو يأكل حسناً، أما غير المؤمن والعباد بالله فساحط في الحالتين، إذا زوي عنه ما يحب ينزعج، ويزمجر، ويغضب، تأتيه النعم فيطغى فيها، ولا يؤدي حق الله فيها، فهو على الحالتين أثم، هنا جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم:

{ عَنْ أَبِي يَحْيَىٰ صُهِيبِ بْنِ سَيَّانٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَخْرِ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ صَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ }

(صحيح مسلم)

كان عمر رضي الله عنه يقول: "وجدنا أذ عيشنا في الصبر"، أي يوم كنا صابرين، أيام الإسلام الأولى سيدنا أبو هريرة لا يجد ما يأكل، يمر أبو بكر فيسأله، قال: ما سألته إلا ليشبعني، لعل معه شيئاً، ثم يمر عمر فسأله عن آية في كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأني فتبسم فعرف ما في وجهي، فقال: قم بنا، فأخذوه وذهبوا لعند أبي أيوب الأنصاري، فلما كانوا في الصبر قال: وجدنا أذ عيشنا في الصبر، ثم فتحت الدنيا، لكنه كان يجد عيشه ولذة عيشه في الصبر لأنه يشعر بقيمة الرضا عن الله عز وجل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ

(سورة التوبة: الآية 100)

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول:

{ والله الذي لا إله إلا هو إِنْ كُنْتُ لأعتمد بكيدي على الأرض من الجوع، وَإِنْ كُنْتُ لأشُدَّ الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه فمرَّ أبو بكر فسأله عن آية مِنْ كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمرَّ ولم يفعل، ثم مرَّ بي عمر فسأله عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمرَّ ولم يفعل، ثم مرَّ أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رأني وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم قال: (أبا هر) قلت: لبيك يا رسول الله. قال: (الحق) ومضى فتبعته فدخل فاستأذن فأذن لي فدخل فوجد لبناً في قده فقال: (مِنْ أين هذا اللبن؟) قالوا: أهده لك فلان أو فلانة، قال: (أبا هر) قلت: لبيك يا رسول الله، قال: (الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي)، قال: وَأَهْلُ الصُّقَّةِ أَضياف الإسلام لا بأوون إلى أهل ولا مالٍ ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب

منها وأشركهم فيها، فسأني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة، كنت أحوُّ أن أُصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيتهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد، فأنتبهم فدعوهم، فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت. قال: (أبا هر) قلت: لبيك يا رسول الله، قال: (خذ فأعطهم) قال: فأخذت القدر فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد عليّ القدر، فأعطي الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد عليّ القدر، حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد روى القوم كلهم، فأخذ القدر فوضعه على يده فنظر إليّ فتبسّم فقال: (يا أبا هر) قلت: لبيك يا رسول الله قال: (بقيت أنا وأنت) قلت: صدقت يا رسول الله، قال: (اقعد فاشرب) فقعدت فشربت، فما زال يقول اشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد لك مسلماً، قال: (فأرني) فأعطيته القدر فحمد الله وسمى وشرب الفضلة {

(رواه البخاري)



الرضا عن الله

الشافعي كان يطوف حول الكعبة فسمع رجلاً يقول: يا رب هل أنت راضٍ عني؟ فقال له: يا هذا وهل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ قال: سبحان الله من أنت؟ قال: أنا محمد بن إدريس، أنت راضٍ عن الله؟ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) فالرضا عن الله يعني في الحالين صابراً أو شاكراً، أنا راضٍ عن الله، هذا الشعور الإيماني العالي، قال: وجدنا ألد عشنا في الصبر، وكان عمر رضي الله عنه يقول: "لَوْ كَانَ الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ بَعِيرَيْنِ، مَا بَالَيْتُ أُيْهُمَا رَكْبَتٌ" لأن المعادلة واحدة، المعادلة هي: صبر من الإنسان، ثواب من الله، جنة، نعمة من الله، شكر من الإنسان، ثواب، جنة، فالمحصلة واحدة، قد يبلغها الإنسان بصبره وقد يبلغها بشكره، وعندما نصل إلى الجنة تلغى كل هذه الأيام والوسائل، لذلك يغمس الكافر في النار غمسة فيقول: لم أر خيراً قط، ذهب الخير كله، والمؤمن يغمس غمسة في الجنة يقول: لم أر شراً قط.

{ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكَفَّارِ، يُقَالُ: اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، فَيُغَمَسُ فِيهَا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: أَي فُلَانٌ هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لا، ما أصابني نعيمٌ قطُّ، ويؤتى بأشدَّ المؤمنين صبراً، وبلاءً، فيقال: اغْمِسُوهُ غَمْسَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُغَمَسُ فِيهَا غَمْسَةً، فيقال له: أَي فُلَانٌ هَلْ أَصَابَكَ صَبْرٌ قَطُّ، أو بلاءً، فيقول: ما أصابني قطُّ صبرٌ، ولا بلاءً {

(صحيح ابن ماجه)

فالنسبة تتحقق بالأمرين، لكن الإنسان من أدبه مع الله عز وجل لا يطلب إلا العافية، اللهم نسألك تمام العافية، لكن عافيتك أوسع لنا، لكن نوطن أنفسنا أن الحياة امتحان، فلو جاء فنحن صابرون إن شاء الله، لكن نسأل الله عز وجل العافية (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) الصبر يكون على طاعة الله، (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) يكون عن معصية الله، شهوة أمامك وتصبر عنها، ويكون على قضاء الله وقدره عندما يأتي القضاء والقدر. إذاً أركان النجاة أربعة: إيماناً أو علم، وعمل، ودعوة، وصبر. صبرٌ على طلب العلم، وعلى العمل بما علم، وعلى الدعوة إلى العلم، الصبر يشمل كل شيء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

(سورة العصر: الآية 3)

هذه سورة العصر قليلة الكلمات عظيمة المعاني، قال عنها الإمام الشافعي: "لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَّتْهُمْ"

والحمد لله رب العالمين

نور الدين الاسلامي